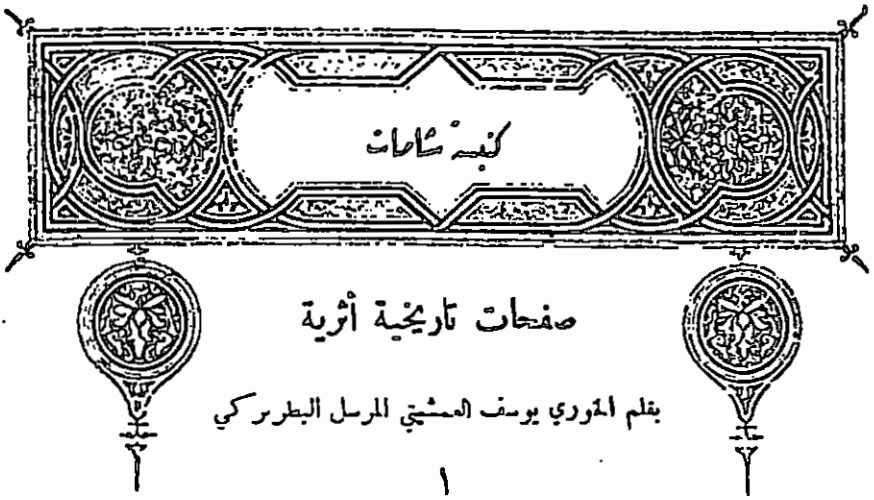

صفحات تاريخية أثرية

بقلم المنوري يوسف المشتي المرسل البطريركي

١

توطئة

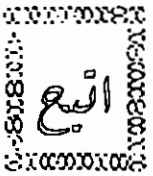

لي ان ازور معظم القرى والاماكن في الابرشية البطريركية لاسباب اقتضتها مهمتي . وشدّ ما كان سروري وارتياحي لدن شاهدتُ ما تركه الاقدمون من الآثار الجليلة ، فكنت اودع مفكرتي بعض ما استحسنه من تراث الاجداد ، وبعض ملاحظات تتعلق بتاريخ البلاد .

ساعدني الحظ هذه المرة ايضاً ان ازور كنيسة شامات الاثرية وألقي عظات الرياضة الروحية فيها بايعاز سيادة النائب البطريركي، المطران بولس عقل ، الذي كان يتقدم الجميع بالمجيء الى الكنيسة لاستماع الارشادات في الاوقات المعيّنة، فكان وجوده بيننا افضل الارشاد، وكان لمثله أشد تأثير في القلوب. واما اقبال القوم على استماع الارشادات من اهل شامات والقرى المجاورة كحصارات وعبادات والراموت الخ فاجاهر به وافاخر بحماسة ابناء قومي وحسن تديّنهم .

لا اشاء هذه المرة ان امرّ بهذه الكنيسة الاثرية دون ان اقول كلمتي فيها ، بعد ان أيدت يدُ الحفر في داخلها وخارجها ما كنا نعتقده من عظم امرها وخطورة شأنها .

بينما كان العملة يحفرون مدفناً للحسنة الذكر سعدى عقل ، والدة سيادة المطران بولس عقل ، داخل الكنيسة ، عثروا على قطعة فسيفساء ، واعمدة كبيرة

ذات اطناف ، واشياء اخرى نتدرّج في الكلام عنها . مع ذكر ما اجرته يد الاصلاح من التجديد والترميم داخل الكنيسة وخارجها ، اثر الحفريات التي عني بها سيادة المرما اليه الذي انفق المبالغ في سبيل هذا المشروع .

انما يحسن بنا قبل الشروع ان نضع مقدمة صغيرة في تعريف القرية المذكورة تمهيداً ، وذكر نتفة من تاريخها ، وبيان قدمها .

١

موقعها

على اكمة مرتفعة مطلقة جهاتها الاربع . لم يخلها الاقدمون الا لما امتازت به من مناعة موقعها وبسطته واشرافه وطيب مناخها . وهي وسط بلدان اخرى لا تقلّ عنها شأناً في قدمها ، وما كان من امرها فيما مضى . ذات صيغة واحدة في تسميتها كحصارات ، وعبادات ، وبجديدات ، وفي كل هذه الامكنة آثار تدلّ على اهمية مراكزها في عهدها .

قال رينان في بعثته الفينيقية : « واذا رقينا الى اواسط البلاد ، فوق عمشيت ، رأينا ايضاً خرائب الهياكل الوثنية الكثيرة التي اقام على انقاضها الشعب المسيحي المعابد المسيحية . من هذه الخرائب كنيسة شامات التي تبعد عن عمشيت ساعة ونصف . وهي كنيسة مزدوجة فيها آثار هيكل روماني من الطرز اليوني (*ionique*) تشير اليه عمُده من الداخل . ويطو بابي الكنيسة عتبتان : الاولى قطعة ناووس « بسيط » ، والاخرى قطعة ناووس ايضاً حفر فيها رأسا عجل تحيط بهما اكاليل من اوراق الغار . ومذبحا الكنيسة احدهما على اسم القديسة تقلا ، والآخر على اسم القديس اسطفان .

« وبالقرب من كنيسة شامات كنيسة اخرى على اسم القديس ماما ، والقديس ادنا ، وهي مبنية ايضاً على انقاض هيكل وثني . وحول هذه الكنيسة قطع اعمدة وتماثيل وخرائب كثيرة ، مما يُنبئ عن اهمية هذا المحل في القرون الخالية »[1]

(١) Renan, *Mission de Phénicie, p. 233-234.*

وعما زاد هذه البلاد في الاعصر الخوالي حسناً وبهاء غاباتها الكثيفة . فكان حول كل هيكل او معبد طائفة من الاشجار الباسقة تظلله باغصانها الوارفة وتكلله بازهارها العطرة.

٢

اسمها

كثيرة هي الاعلام التي لم يستقص عنها الاثريون في البحث والتنقير ولم يعرها البحّاثة نظرةً . او انهم لم يهتدوا لمعرفة اصلها وسبب تسميتها . ومن عداد هذه الاعلام شامات ، فلم يرد لها تعليلٌ او مخرج ممّن كتبوا عن هذه البلاد ، ولا في معجم الاعلام ايضاً ؛ الّا العلامة لامنس فقد ذكرها في اثناء كلامه عن النتائج التاريخية من درس اعلام الاماكن اللبنانية في كتابه تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار [1] قال :

« كنا الى اليوم نشتبه بوجود الهة كان الآراميون يؤدّون لها اكراماً خصوصياً ويدعونها شيما. وقد استلفت اليها الانظار بمقالاته حضرة الاب سبستيان رنزقال، فقد اكتشف بجذقه المعروف اسم هذه الالهة في كفرشيما قريباً من بيروت ، وبيت شاما ، على طريق زحلة الى بعلبك ، وشامات في بلاد جبيل . ونحن نضيف الى ما تقدم اسم بعلشميه في الملتن الاعلى . فهذا الاسم الذي يبدأ ببعل هو عندنا من اغرب الاسماء الاولية والاصلية في لبنان . »

ولا باس هنا من ذكر ما جال في الخاطر من امر هذه التسمية ولو على سبيل التخمين والحدس . فلعلّ في ذلك ما يفطّن البحّاثة والرحّالة الاثريين الى ما لم نفطن نحن له ولم يدر في الخلد ، فالحقائق هي بنات البحث والتنقيب.

من البيّن ان كثيراً من اسماء الاعلام لم تبقَ على اصلها بسبب ما عراها من تحريف وتصحيف وتغيير وتبديل ، وعليه اضع هذه التسمية موضوع البحث تاركاً لكل حكمه في امرها.

اذا كان شيما احد آلهة الاراميين ، ومنها اتخذ اسم شامات كما ذكر الاب

---

(١) جز ٢ ، ص ٢٤١.

الملامة لامنس ، فلا يبعد ايضاً ان يكون اتخذ اسمها من شمار العبرية الاصل بابدال الراء تاء ، كما يحدث في اسماء الاعلام ، ومعناها المرصد ومكان الحراسة والمراقبة مما يطابق موقع هذه القرية لارتفاعه وتسلطه .

وفي نشرة سان لويس الفرنسية ، العدد ١٠٨ سنة ١٩٠٥[1] ان قد اكتشف في دير القلعة في بيت مري كتابة يونانية لاتينية تبيّن عبادة اهل سورية وعلى الخصوص سكان دير القلعة الفينيقيين لابنة جوبيتر المدعوة شيا .

ويستنتج الباحثون من هذا الاكتشاف انتشار عبادة ابنة جوبيتر في الاقطار اللبنانية ككفرشيا ، وبيت شاما ، وشامات الخ .

أو من شامَ اي تطلّع نحوه . او من الشامة اي الناقة السوداء ، او الاثر الاسود في الارض . او من ܫܡܫܐ السريانية : سنبلة الذرة ، وكبة الغزل . او مما يتناقله اهل شامات واهل الجوار صغارهم عن كبارهم :

زعموا انه كان للملك بيدلوس ابنان احدهما يدعى شاه والآخر اسمر . وابنة تدعى حصن . فاسمر وهو الاكبر سكن اسمر جبيل « سمار جبيل » فدعيت باسمه . وشاه وهو الاصغر سكن شامات ودعيت باسمه . وحصن سكنت في قصر على اكمة تجاه قصر اخيها شاه ودعي محل سكنها حصن عار لارتكابها امراً منكراً جرّ عليها عاراً .

اما شاه فمرض مرضاً ثقيلاً فأودى . ولم يجسر احدٌ ان يخبر اباه بموته ، لانه كان سيء الخلق غليظ الطبع . فاتفق يوماً ان فاوض هذا الملك احد وزرائه بشأن ابنه شاه . فاجابه هذا على الفور ، وكان حادّ الفؤاد لطيف الروح :

هبَّ النسيم على المصباح فانطفأ

فقال له الملك هل ابني شاه مات ؟ فقال له الوزير انت قلت ايها الملك . ومن ذاك العهد دعيت شامات باسمها الحالي . ولا نتحرى هنا سرد اخبار وقصص الاقدمين فلكلّ جيل احاديثه وتقاليده يتناقلها الخلف عن السلف . بعضها لها اصل كالنواة من الشجرة ، وبعضها مختلقٌ اختلاقاً .

---

(١) *Bulletin S^t Louis, N^o 108, 1905.*

٣

قدمها

شأن هذه البلدة الصغيرة الآن شأن غيرها من هذه البلاد . كانت قديماً موطناً لامم كثيرة توالت عليها كالفينيقيين والرومانيين واليونانيين والمصريين الذين تملكوها في عهد السلالة الثانية عشرة . ثم ثبت ملكهم عليها في عهد رعمسيس الثاني ، الذي نرى كتاباته في صخور مضيق نهر الكلب . وغيرهم من الامم كما تؤيد ذلك اخبار تلك القرون ، وتدل على بعض هذه الامم آثارهم الباقية الى اليوم كأنية خزفية وزجاجية محطمة ، وانقاض وردوم وخرائب ونواويس وقبور محفورة في الصخور ، وآبار كثيرة نحو ٥٠٠ بئر ، واعمدة ، ومساند ابواب ، وحجارة كبيرة محكمة النحت مبعثرة . وقد عثر العملة على هيكل عظمي تتناهى في كبره فبلغ نحو مترين و ١٠ س . كما ترى في الرسم الاول.

اما المسكوكات النحاسية وقطع الاجر فقد وجد منها كثير ، عند تشييد منازل اهل القرية ، كما يروي شيوخها فلم يكونوا يحفلون بها ولم يقيموا لها وزناً لعدم معرفتهم قيمتها ، فذهبت ضحايا جهلهم . كما انهم لم يكونوا يفطنون للكتابات على الصخور فنحتوا البعض وعدلوه للبناء ، وتركوا البعض عرضة لعوامل الجو فطمست آثار الكتابة فيه.

ولا نتوخى بهذه العجالة كتابة تاريخها حتى نتدرج في الكلام بالتفصيل عنها . انما يهمنا من امرها ما يتعلق بموضوع بحثنا اي كنيستها وقدمها ، وآثارها ؛ وعليه نتكلم بالاجمال عن عهد تنصرها.

مما لا مرية فيه ان عهد تنصر اللبنانيين يرتقي الى الاجيال الاولى ، ولاسيما سكان الاساكل الفينيقية كجبيل ، وبيروت ، وطرابلس الخ كما حقق ذلك بياجيوس في تأليفه سورية المقدسة ، ولاكويان في الشرق المسيحي . واول اسقف على جبيل كان يوحنا مرقس سقفه القديس بطرس ، زعيم الرسل ، كما تشهد على ذلك السنكسارات الشرقية اليونانية ، والسريانية المارونية ، والكلندار الروماني ، حيث يذكر في ٢٧ ايلول استشهاد القديس يوحنا الملقب مرقس

اسقف جبيل في فينيقية . ولاكرام هذا القديس بُنيت كنيسة جبيل الكبرى.

وفي « سورية المقدسة » انه كان في جبيل هيكل بيزنطي قديم تكرَّم فيه ايقونة عجائبية لسيدتنا مريم العذراء ورد ذكرها في اعمال المجمع الرابع الخلقيدوني ، ولعلها اليوم ايقونة سيدة البوابة العجائبية.

ولما كانت بيبلوس المدينة المقدسة لدى شعوب تلك العصور ، كانوا يحجون اليها من الاقطار البعيدة مرات في السنة للتيمّن بزاراتها كما تدل على ذلك آثار هياكلها الفخمة ، التي توفق علماء الآثار في اكتشافها ولم يزالوا حتى الآن يواصلون التنقيب عنها ، ولاسيما اهل الجوار كشامات وعبادات وبجديدات وغيرها ؛ لما بين جبيل والاماكن الاخرى من العلائق المدنية ايضاً التي لا يمكن الاستغناء عنها.

فقد كانت هذه المدينة منشأ لكثير من الصنائع ، ولاسيما نسج الكتان والحرير ، وصنع الزجاج ، والادوات والاواني البيتية ، وكل ما يحتاج اليه الفرد من ضروريات المعيشة ؛ وايراد البضائع وتصديرها الى الخارج كما ذكر ذلك رينان في بعثته الفينيقية ، ص ١٥٤.

وهل يعقل ان يلبث اولئك بضلالهم ، اي على معتقدهم الوثني ، دون ان يدينوا بدين مُواطنيهم ورؤسا الأمّة او يهتدوا بهديهم بعد ان رأوا من جهاد ابناء جلدتهم في تسجيل حقيقة ايمانهم بدمائهم ما يقنعهم بصدق معتقدهم ؟ كاستشهاد لوسيوس ، وقوادوروس ، واكوبلينا احدى عذارى جبيل التي قصفها المغتصبون كغصن رطيب ، وليس لها من العمر سوى ١٢ سنة . وقد اخبر البولنديون في اعمال القديسين ، في اليوم الـ ١٣ من حزيران ، ان نصارى المدينة جمعوا ذخائرها المقدسة ودفنوها بمزيد الاكرام . ثم تمدّدت العجائب على قبرها[1] ويقال ان اصلها من جبيل نصرها اسقفها اوثاليوس ، وهي حديثة السن ، فاضطرم قلبها حبًّا بربها واخذت تدعو مواطنيها الى الايمان المسيحي . فبلغ ذلك مسامع الحاكم ثولوسيان ، فأخذ يلاطفها اولًا لتجحد دينها . واذ يئس اخيرًا من اقناعها ، امر بقطع رأسها . وهكذا قاست الشهيدة الموت الاحمر في سبيل ايمانها وذلك سنة ٣٠٨ .

---

١) الاب لامنس في تأليفه : « تسريح الابصار » جزء ، ص ١٠٥ .

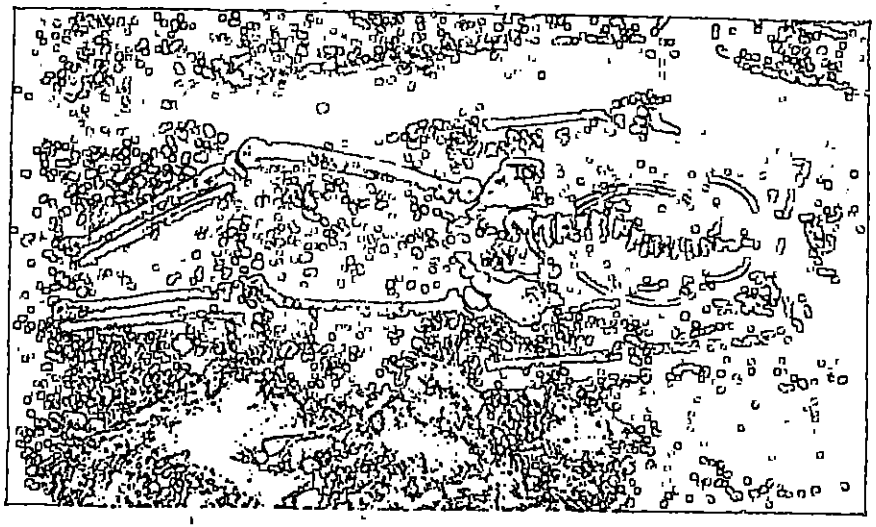

هيكل عظمي

اكتشف في شامات يبلغ طوله نحو مترين و ١٠ س.

البطريرك دانيال الشاماتي

١٢٣٠ ــ ١٢٣٩

ومجمل القول ان النصرانية اخذت في الانتشار منذ اوائل القرن الثاني ، وما لبثت ان ظفرت بصبر ابطالها على كل المصاعب ، ودخلت في طور جديد تتدرّج بمدارج التقدم والانتصار ، حتى قضت اخيرًا على الوثنيّة وظهرت وحدها منار الانسانية ومرجع سعادتها وراحتها.

٤

بطريركها

تشرفت شامات بجبر من احبار الكنيسة الاجلّاء ، السعيد الذكر ، دانيال الاول ، خلف بطريركنا القديس ارميا العمشيتي. ساس هذا البطريرك الكرسي الانطاكي ، بدراية وحكمة عجيبتين.

ورد في المجلة البطريركية ، لمديرها ورئيس تحريرها صديقنا الفاضل الخوري بولس قرألي ، جزء اذار من هذه السنة ، ص ١٦٠ : تابع زجليّة المطران جبرائيل القلاعي: « وكان البطريرك يومئذٍ يسمى دانيال اصله من قرية شامات راهب من رهبان وادي علمات وله في قرية رامات قرايب فاخذوه الى عندهم لعظم الفتن واسكنوه قربهم في دير مار قبريانوس كفيفان . انتخب البطريرك دانيال الاول سنة ١٢٣٠ بعد وفاة الاب القديس البطريرك ارميا العمشيتي في دير سيدة ميفوق في وادي ايليج من ابرشية جبيل . ثم ترك دير سيدة ميفوق لاضطراب جبل الامن فيها بسبب الحروب والفتن في ذلك العهد وسكن دير كفيفان . ثم انتقل من دير كفيفان الى دير مار يوحنا مارون في كفرحي . وفي سنة ١٢٣٦ سكن في دير مار جرجس الكفر الذي يبعد عن شامات مسقط رأسه نصف ساعة . ثم سكن في دير سيدة هابيل. ومنها رجع الى دير مار قبريانوس كفيفان حيث توفي برائحة القداسة سنة ١٢٣٩ . وخلفه البطريرك يوحنا الجاجي [1].

١) ان بطاركة طائفتنا ، قبل ان جعلوا سكناهم في دير قنوبين ، غيّروا مواضع كراسيهم حسب مقتضيات الزمان. لكنّهم اتخذوا اخيرًا دير سيدة بكركي كرسيًا لهم في الشتاء ، والديمان مقرًّا في الصيف.

ففي سنة ٦٨٥ للميلاد الالهي ، كان الكرسي البطريركي في دير القديس مارون في قرية

٥

كنيستها

كان محل هذه الكنيسة هيكلاً وثنيًا ، شأن الاقدمين في تشييد معابدهم على رؤوس الروابي والاكام ، وامام مخارج المياه كهيكل افقا وسيدة ايليج في ميفوق الذي حوّله مسيحيو الاجيال الاولى الى معبد مسيحي كما حوّلوا غيره من الهياكل الوثنية ، من عهد الملك قسطنطين الذي امر بهدم جميع الهياكل الوثنية في هذه البلاد واقامة المعابد المسيحية على انقاضها . وهذا ما دعا المسيحيين في ذلك العهد الى السكنى في الجبال ، حيث انشئت تلك المعابد . وحسبنا شاهدًا على ما تقدم بيانه ما ذكره الكتاب المقدس عن بني اسرائيل : « واقاموا لهم انصاباً وغابات على كل اكمة عالية وتحت كل شجرة خضراء . »[1]

(لها صلة)

كفرحي ، من اعمال البترون . ثم نقل الى سيدة يانوح ، من اعمال بلاد جبيل ، حيث استمرّ الى سنة ١١٢٠ . ومن هناك نقل لثالث مرة الى دير سيدة ميفوق ، في وادي ايليج ، من اعمال بلاد جبيل ايضاً . ونقل لرابع مرة الى دير مار الياس لحفد ، من اعمال بلاد جبيل ايضاً . وفيه استقر يوحنا اللحفدي صاحب التافور المعروف باسمه ؛ وهو الذي نقل الكرسي لخامس مرة الى دير سيدة هايل من ابرشية جبيل عينها . ثم انتقل لسادس مرة الى دير سيدة يانوح ، في عهد رئاسة بطريركنا القديس المسيحي سنة ١٢٠٩ ، وهو الذي ارسل له البابا زخيا الثالث تلك الرسالة المشهورة التي يسمي فيها الكنيسة البطريركية كنيسة يانوح ويمدد الكراسي التابعة لها (راجع مشرق هذه السنة ص ٢٧٠) .

ثم انتقل لسابع مرة الى دير القديس قبريانوس في كفيفان . وهناك جلس البطريرك دانيال الشاماني الاول خليفة المسيحي القديس ، ونقل الكرسي لثامن مرة الى دير القديس مارون في كفرحي . ومنه لتاسع مرة الى دير القديس جرجس في الكفر من ابرشية جبيل القريبة من مسقط رأسه شامات .

ثم انتقل عاشر مرة الى دير سيدة يانوح ، وهناك اقام يوحنا خليفة البطريرك دانيال . ثم انتقل للمرة الحادية عشرة الى دير سيدة ميفوق ، وهناك اقام البطريرك جبرائيل حجولا الذي توفي شهيدًا .

ثم انتقل للمرة الثانية عشرة الى دير القديس سركيس في حرصين ، من ابرشية طرابلس . واخيرًا انتقل للمرة الثالثة عشرة الى دير سيدة قنوبين ، من اعمال طرابلس .

١) سفر الملوك الرابع ١٧ : ١٠